المحاضرة الثانية: العقلانية الديكارتية:

تمهيد:

عند تعليق كل الأحكام المسبقة على مفهوم العقلانية فإن التداعي الأسرع لهذا المفهوم مشتق من الاسم اللاتيني ratioونعني به العقل الذي يقابل في اللغة الفرنسية raison والعقلاني هو ذلك الإنسان الذي يمنح الأولوية لقدراته العقلية في معرفة ما يحيط به، ويؤمن إيمانا مطلقا بقيمة العقل، والإيمان بالقدرة العقلية هو بمثابة الشرط الأساسي لكل بحث أو جهد فكري يقدم، ومن بين أهم زعماء هذا المذهب العقلي rationalisme قديما نجد سقراط الفيلسوف الآثيني اليوناني باعتباره الرائد والمؤسس الأول للفلسفة، هو الذي بين منذ البدايات الأولى للفلسفة وأكد على أنه ينبغي علينا اتباع المحاجة العقلية حيث ترشدنا وتوجهنا، هذا يدل على أنه ينبغي الاحتكام إلى سلطان العقل في معرفة كل تقاليدنا ومعتقداتنا معرفة نقدية مطلقة وشاملة أو كما يقول:" الحياة التي يغيب فيها العقل ليست جديرة بالعيش" هذا الشعار السقراطي لم يكن شعارا فارغا بل أودى بحياته تقريبا سنة 399 ق.م.

في القرن الرابع جاء تلميذ سقراط وهو أرسطو الذي قدم نظرية في الطبيعة الإنسانية، محتواها هو أن ما هو عقلاني rational هو الصفة المميزة التي تعرف الإنسان على أكمل صورة هذا ما جعله يقول قولته الشهيرة الإنسان حيوان عاقل هذه الصفة هي التي تميزه عن باقي الكائنات الأخرى، كالنبات، الحيوان، الجماد...الخ لأن قدرتنا البشرية هي أكثر تميزا وحسما عن قدرة المخلوقات الأخرى، ولهذا في كتابة الأخلاق إلى نيقوماخوس يؤكد على أن الإنسان سعادته تكمن في النظر والتأمل وممارسة كل قدراته النظرية الخالصة فإن هذه المعقولية تتلخص معاييرها في الإحكام المنطقي، الاتساق، التماسك والالتزام.

انطلاقا مما سبق يتضمن المفهوم العام للعقلانية الالتزام بكل مقاييس العاقلية وهو المطلب الأساسي لكل نظام فلسفي، والفلاسفة الذي هم داخل إطار هذا المفهوم أي العقلانية هم عقلانيون، وهناك عقلانية بالمعنى التقليدي التي تقتضي الاستخدام الأصيل للعقل، والعقلانية التي تود استخدام العقل استخداما تقنيا كما هو الحال مع الفلاسفة الغربيون في العصر الحديث في أوربا عموما خاصة في القرن الثامن عشر يحاولون تحرير العقل من كل الأوهام التقليدية السابقة عنه في حين ينعتون أنفسهم بأنهم فلاسفة بالمعنى التقني. يبالغ أنصار الاتجاه العقلي في تأكيد دور العقل في العملية المعرفية وينتقدون كل الحقائق التي تردنا من الحواس كما أن إمكانية الوصول إلى الحقيقة تقتضي في رأيهم عدم مخالفة مقاييس العاقلية والقواعد المنطقية. وهذا الاتجاه يقول بسطان العقل في معرفة كل ما يحيط بنا قصد

الوصول الى الحقيقة اليقينية، فإذا كانت العقلانية تؤكد أولوية العقل في المعرفة حسب هذا الاتجاه فإن للعقلانية لها عدة معان منها:

_ كل ما هو موجود في العالم الخارجي بغض النظر عنه له علة وجوده أو علته معقولة

_ المعرفة وليدة المبادئ العقلية الضرورية القبلية وليس الحواس أو ما شابه ذلك.

_ حضور العقل هو شرط لحدوث أي تجربة وإمكانها، بحكم أن المعطيات السابقة والموجودة في العقل هي التي تنظم العمليات الحسية.

_ مثال على ذلك أفلاطون يفضل ويسبق عالم المثل عن عالم المحسوسات على أساس أنه العالم المعقول والحقيقي.

ديكارت سنراه لاحقا يؤكد على الأفكار الفطرية المسبقة التي يتضمنها العقل.

كانط يستحضر مسألة الصور القبيلة التي تنظم كل الظواهر الموجودة في الزمان والمكان.

هذه المبادئ كلها سابقة عن إدراك الحقائق في نظر العقلانيون وشعارهم كل معقول موجود وكل وموجود معقول.

لنقدم نماذج من الفلاسفة العقلانيون كالآتي:

1_ ديكارت (1596_ 1650): René Descartes

ولد رينيه ديكارت في 31 مارس 1596 في بلدة صغيرة تدعى "لاهى" Lahye تابعة لمقاطعة تورين toraineفي فرنسا هو من أسرة تعد من صغار الأشراف، أبوه يشتغل منصب في البرلمان أمه توفيت وهو في سن الثلاثة عشر شهرا من عمره.

في المرحلة الأولى من حياته التحق ديكارت بمدرسة الأباء اليسوعيين والتي تعرف اليوم بمدرسة لافليش la flèche عام 1604 تعبر من أهم المدارس الأكثر شهرة في فرنسا أنذاك وأوروبا عموما لمدة ثماني سنوات، وهذه المدرسة ممنهجة من حيث التدريس درس ديكارت في البداية فيها اللغات القديمة اليونانية واللاتينية، وفي السنوات الأخيرة الثلاثة درس فلسفة أرسطو، سنة واحدة للمنطق، وسنة للعلوم الطبيعية والرياضية، سنة لعلوم النفس والميتافيزيقا، كما أعجب أيضا بالرياضيات لدقة منهجها في بلوغ اليقين. الفلسفة وكل ما يتعلق بها بداية كان ديكارت غير معجب بها لكثرة النقاشات الدائرة فيها بل حتى العلوم الطبيعية كونها لا تقدم معارف كاملة.

انصرف ديكارت عند هذه الدراسات، واتجه لدراسة الهندسة في عام 1612 التي كانت فرصة للقاء مع زملائه من أمثال ميدورج، مرسين، وفي هذه الفترة واصل دراسة الطب والقانون وتحصل على إجازة فيهما سنة 1616، التحق بالجيش الهولندي وفي هولندا تعرف على العالم الرياضي "بيكمان" كان له الفضل في توجه ديكارت ثم قرر التوجه إلى إيطاليا وفي هذه الرحلة يقال إنه بدأت ملامح التفلسف من جديد على الفيلسوف في حلم راوده حتى قيل إنه حلم نزل عليه من السماء أكتشف فيه أسس علم عجيب هناك من يقول علم الرياضيات، المنهج العقلي...الخ. سافر مرة أخرى إلى إيطاليا ثم عاد إلى باريس عام 1625 ثم بعد ذلك قرر الاستقرار في هولندا 1929 بقي فيها لمدة عشرون سنة كاملة في هذه المرحلة بدأ انتاجه الفكري الفلسفي من خلال بعض المراسلات التي كانت دائرة بينه وبين أميرة هولندا اليزابيث وقد كان محتوى هذه الرسائل عبارة عن مسائل في الأخلاق خاصة أخلاق الفلسفة الرواقية (1).

كان يقدم دروس في الفلسفة في كل صباح لكن ظروفه الصحية جعلت منه لا يستطيع التحمل أصيب بمرض في صدره توفي في 19فبراير 1650 عن عمر ناهز ثلاثة وخمسون سنة.

2_ مؤلفاته:

_ كتاب العالم le monde سنة 1630 لم يتم نشره خوفا من سلطة الكنيسة خاصة عند ما أصدرت حكما في حق العالم جاليلوا عام 1623 وديكارت يوافق هذا العالم في نقطتين أساسيتين ذكرهما في هذا الكتاب هما دوران الشمس الأرض حول الشمس، ومسألة لانهائية العالم أي العالم غير محدود في اعتقاده وهذا أيضا كلام مناف للكنيسة.

_ قواعد لتوجيه العقل لم يتم انهائه وكان يريد من خلاله تأسيس لعلم فلسفي وفق بناء جديد.

_ مقال في الطريقة Discours de la Méthode سنة 1637

_ تأملات في الفلسفة الأولى Méditations سنة 1941 ألفه في مدة قدرها اثنتا عشر سنة يتناول فيه براهين وجود الله، خلود النفس.

_ مبادئ الفلسفة principes de la philosophie سنة 1641.

_ رسالة في انفعالات النفس traité de passions de l'âme سنة 1650 هو كتاب في علم النفس والإلهيات.

3_ المنهج الديكارتي:

لقب ديكارت بأب الفلسفة الحديثة هذا اللقب الذي أخذه إنما يعود للاكتشاف الذي قدمه في هذه الفترة وهو اكتشاف منهج جديد في المعرفة، وما كان له أن ترسى قواعده لولا النقد العميق الذي ووجهه للفيلسوف اليوناني أرسطو في منطقه خاصة القياس، يعتبره ديكارت مجرد وسيلة تساعدنا في بلوغ ما كنا نعرفه من قبل من حقائق، لكنه ليس طريقة لا كتشاف حقائق جديدة، في حين ديكارت هدفه الأولي هو اكتشاف منهج جديد في لأن القياس الأرسطي موجود من قبل عند الفلاسفة المسلمين من أمثال ابن سينا الذي يطلق عليه "المصادرة على المطلوب". إن النقد الديكارتي لأرسطو لا يتوقف فقط عند القياس بل انتقده أيضا في الفيزياء والميتافيزيقا(2).

كما نجد ديكارت معاصرا لفرانسيس بيكون عندما أصدر مؤلفه الشهير الأورغانون الجديد انتقده ديكارت وثار عليه على من أن فرانسيس بيكون كان هدفه انقاذ علم الطبيعة في أوروبا عموما من إهمال الملاحظات الحسية والتجارب الجزئية وهذا ليس هو هدفنا في نظر ديكارت إنما الهدف الأسمى هو اكتشاف منهج يصلح لجميع العلوم ويكون أساسا لها. في حين المنهج الجديد عند ديكارت هو منهج دقيق يضاهي تلك الدقة التي نجدها في علم الرياضيات.

4_ مبادئ المنهج الديكارتي:

أ_ الحدس: هي الطريقة المباشرة التي بها ندرك الحقائق في بداهتها، دون أي شك كما أننا لا نستطيع البرهنة عليه لمجرد بديهيته، أي لا يمكن البرهنة عليه بل هو معرفة فورية مباشر منطلقها العقل وليس الحواس كما يعتقد المعرفة اليقينية عند ديكارت أساسها الحدس والحدس له نور فطري. والحدس عند ديكارت له خاصيتين:

_ الوضوح: الفكر لا يمكن أن تقوم إلا داخل الذهن ونتقبلها حينما تكون واضحة أي لا يتطرق إليها الشك لا يمكن البرهنة عليها عكس الفكرة الغامضة نحتاج لسيء آخر حتى نبرهن عليها.

_ التمايز: أي الفكرة التي تقبلتها لا يمكن أن تكون ملتبسة مع فكرة أخرى، مثال ذلك عندما أقول أتمنى، أرغب، أريد هذا لا يعطي فرصة لكي نشك هذه عمليات عقلية أساسها ومنطلقها الحدس(3)

ب_ الاستنباط: هو انتقال الذهن من قضية هي مقدمة أولى إلى قضية تكون هي النتيجة وفق قواعد منطقية مثال ذلك في الرياضيات ننطلق من البرهنة على شيء إلى ما يساوي ذلك الشيء مثال أيضا القياس الأرسطي هو نوع من الاستنباط.

ديكارت هنا لا يقصد بالاستنباط القياس الأرسطي ولكن يقصد أن ننتقل من فكرة حدسية إلى نتيجة تصدر عنها صدورا ضروريا ولا يمكن تصور نقيضها، الاستنباط الديكارتي تقريبا هو استنباط رياضي يعني الوصول إلى نتائج جديد وليست فقط مجرد نتائج كامنة فبي الفكرة الحدسية الأصلية.

5_ قواعد المنهج الديكارتي:

يؤكد ديكارت أن العلم لا يكون علما إلا إذا كان يقينيا والعلم قوامه البداهة واليقين، ليس الظن والتخمين. لقد اقتنع ديكارت من بين الفلاسفة أن حاجة الفلسفة الكبرى إنما هي الحاجة إلى منهج دقيق وسليم، ومثمر في العملية البحثية، وهذا المنهج لا يمكن أن يكون دون حضور علم الرياضيات والتي كان ديكارت بارعا فيها حيث أخذ من الرياضيات الهندسة، والمنهج الدقيق.

ديكارت من خلال هذا المنهج يريد أن يدخل في الفلسفة طريقة جديدة يؤسس من خلالها لفكر غربي حديث دقيق ذلك لا ولن يتم في نظره دون حضور مجموعة من القواعد الدقيقة أيضا هي كالآتي:

_ القاعدة الأولى: الشك.

يقول ديكارت في كتابه خطاب في منهج: " لا أسلم بشيء على أنه صدق إلا إذا كنت أعلم أنه كذلك ومعنى ذلك أن أحذر وأتجنب كل تسرع أو ميل إلى الهوى، وألا أدخل في حكمي شيئا أكثر مما هو حاضرا أمام عقلي في وضوح وتمايز بحيث لا مجال للشك في صحته"

هذه القاعدة عند ديكارت هي قاعدة البداهة أي لا يمكن أن أتقبل أيا شيء ما لم أشك فيه أي وضع كل شيء بين قوسين ومن ثم نمارس تعليق الحكم بالمفهوم الفينومينولوجي. هذا يمنحنا في نظر ديكارت الاستقلال الفكري بعيدا عن الموروث الثقافي التقليدي.

_ القاعدة الثانية: التحليل.

تعني حسب ديكارت كل مشكلة نتناولها بالبحث ينبغي تجزئتها إلى أكبر عدد ممكن من الأجزاء بمقدار ما تقتضيه من حل على أكمل وجه هذه هي قاعدة التحليل وتعد قاعدة أساسية في المنهج العقلاني الديكارتي يعني ذلك كل بحث يتطلب تحليلا دقيقا والقدرة على التحليل يقول ديكارت تلازمها القدرة على النقد هكذا يسهل التعامل مع حل المشكلات.

_ القاعدة الثالثة: التركيب والتأليف.

يؤكد ديكارت أنه أثناء عملية حل مشكلة يجب أن نرتب أفكارنا ونبدأ بأبسط الأشياء وأسهلها ثم نتدرج خطوة خطوة حتى نصل إلى معرفة ما هو أعقد من ذلك ثم نصل إلى حل نهائي. ويعد تجزئة المشكلة إلى عناصرها وحلها نعيد تركيبها وتأليفها من جديد منطقيا (4)

_ القاعدة الرابعة: الإحصاء.

يقول ديكارت في كل حالة ينبغي أن نقوم بالمراجعة والإحصاء حتى لا نغفل شيئا من جوانب المشكلة التي نحن بصدد حلها هذه القاعدة يقصد بها الثقة والتحقق من أننا لم نغفل أي جزء من المشكلة وهنا ديكارت يشير إلا أن الانسان بطبعه يغفل وينسى (5)

هذه هي القواعد التي ينبغي أن يمشي بها العقل الإنساني لكي يؤسس لفكر وطريق جديد في المعرفة

6_ الكوجيتو الديكارتي:

يتبين في قضية الكوجيتو الديكارتي أن وجود الإنسان في ماهيته، إنما هو وجود فكري والفكر هنا لا يقصد به ديكارت القدرة على البرهان فقط أو الانتقال من المجهول إلى المعلوم وإنما المقصود هو استخدام كل العمليات العقلية التي يمكن للإنسان ممارستها فأنا أفكر تعني عند ديكارت أنا أحس، أن أدرك، أنا أنفي، أنا أرغب، أنا أشك، أنا أعتقد وهكذا ليس أنا أتقبل فقط.

لهذا قال ديكارت: " أنا أفكر إذن أنا موجود" هذه هي ماهية النفس، ويقول:" كان ينقصني علامة أبين بها الحق، ولكن ها أنذا مالك الحكم، لا سبيل إلى الشك فيه يكفيني أن أبحث ما هي خصائص هذا الحكم التي تضمن لي أنه حق(...)" هكذا برهنا ديكارت على وجود الله ووجود الأشياء المادية.

هذا الكوجيتو في نظر ديكارت هو الذي يثبت الذات أنها موجودة، واثبات الوجود هنا لا يكون إلا باكتمال هذه الذات واكتمالها هو عندما تكون ذات تفكر وتشك، كما أنها لا تشك بأنها تشك، وهذا الكوجيتو هو الدعامة الأولى للمعرفة وأساسها اليقيني.

من خلال ما سبق يتضح أن الحقيقة التي وصل إليها ديكارت أنا أفكر إذن أنا موجود، هذا هو المبدأ الوحيد للفلسفة ولذلك نجد وجود الذات ليس هو موضوع الشك بالنسبة لديكارت وإنما هي شرط للشك ذاته، ومن خلال ذلك يستنتج ديكارت أنه هناك نظرية الثنائية dualisme تشمل العقل والجسم.

7_ جدلية العقل والجسم:

يرى ديكارت أن الإنسان مركب من عنصري أساسين هناك من ينظر إلى اتصالهما وهناك من ينظر إلى انفصالهما، العقل ماهيته التفكير أو الفكر عموما، لكن الجسم خاصيته هي الامتداد ديكارت على عكس

الفلاسفة السابقين وحتى العلماء لا ينظر إلى هذه العلاقة في اتصالها بل في انفصالها وبهذا استطاع ديكارت إقامة ما يعرف بالميتافيزيقا عن طريق هذا الفصل المطلق بين العقل والجسم، واستطاع ابطال كل دعاوى المذهب المادي، وكل العلوم التي تفسر الجسم من منطلق العقل والعقل من منطلق الجسم، ليصبح عند ديكارت أنه لا توجد آية علاقات منطقية تربط ما هو عقلي بما هو جسماني، وعند نتساءل مع ديكارت كيف يعرف الإنسان هل بالعقل أم بالجسم حتما يجيبنا أي إدراك لا يكون ولن يتم بدون العقل الإنساني لذلك يقول في كتابه انفعالات النفس:" تعلم النفس بالعقل ويعلم الجسم بالعقل(6)

لهذا فالكوجيتو في نظر ديكارت هو الذي يحدد معنى الوجود يعتبر فكرة صادقة ويطلق عليه اليقين الأول.

8_ إثبات وجود الله:

أغلب الفلاسفة السابقين واللاهوتيين عند إثباتهم لوجود الله يكون منطلقهم العالم الخارجي وتأكيد ما فيه ثم الصعود إلى عالم المطلق لكن ديكارت على العكس من ذلك ديكارت فضل أن ندرك العالم عن طريق الله ولم يتخذ مثل الفلاسفة السابقين العالم قاعدة للصعود إلى عالم الإله وإثباته، بل استخدم عالم المطلق وعالم الإله للنزول وتأكيد ما يوجد في العالم والحياة، أي طلب من الإله أن يضمن له وجود الحياة قبل كل شيء ولكي يثبت ذلك ديكارت يعود دائما إلى مبدئه الشهير وهو الكوجيتو أنا أفكر إذن أنا موجود لا يوجد هناك شك من أن الذات ليست ذات مفكرة وبهذا التفكير الفطري المتين جعل ديكارت هذه الذات كأنها كلها ثقة في إثبات كل سيء بما في ذلك الإله.

1_ البرهان الوجودي الأنطولوجي:

يؤكد ديكارت أننا بإمكاننا تصور كائن مطلق لانهائي وجوهره لا متناهي أزلي وأبدي في نفس الوقت، ثابتا ومستقلا عنا له القدرة في خلق نحن وخلق جميع الأشياء الدليل على ذلك بما أنا حقيقتنا محدودة وناقصة يلزم من ذلك أن فكرة الكائن المتكامل واللانهائي لسنا نحن مصدرها بل هناك من وهب لنا هذه الفكرة الحدسية الفطرية فينا وهو الله وهو صادق صدقا لا متناهيا هذه الصورة الذهنية عن الله يستحيل أن تأتي من العدم في نظر ديكارت قد ألقيت فينا بواسطة كائن طبيعته هي أكثر كمالا.

2_ برهان النفس التي تشك (الإنسان):

قد يكون الله موجود لكنه غير تام الكمال، ناقص هذا شك ربما نابع من نفس، لكنه لا بد من لوجوده من علة والعلة لابد أن تكون مكافئة على الأقل للمعلول إن لم تكن أكثر منه فضلا وكيفا، الذي يستطيع أن

يهب الوجود يستطيع أن يهب الكمال هناك علة إلهية هي قد وسعت كل شيء وهذه العلة هي الأثر المباشر في خلق جزئيات الوجود.

3_ برهان الهندسة:

هذا الدليل أيضا هو دليل وجودي يريد أن ينتقل فيه من الفكر إلى الوجود ويدعى أيضا دليل من الهندسة حاول أن يستخلص فكرة الله تعالى من فكرة الله ذاتها على نحو مثلا ما نستخلص صفات المثلث أو تعريفه وفكرتنا عن المثلث تستتبع أن تكون زواياه الداخلية مساوية لقائمتين 180 درجة كذلك فكرتنا عن الله كونه كائنا كاملا متناهيا تستلزم وجوده بالضرورة ففكرة الوجود متضمنة في فكرتنا عن الكائن الكامل على نحو ما تكون زوايا المثلث قائمتين متضمنة في تعريف المثلث.

بهذه الأدلة على وجود الله سيثبت كذلك ديكارت أننا نستطيع إثبات وجود العالم الخارجي أو ما يعرف بالجوهر المادي يؤكد ديكارت أنه يوجد فينا ميل طبيعي قوي نحس به ويجعلنا نعتقد بوجود هذا العالم هو ميل وهبه الله لنا ومادام الله كامل فإنه هو الذي حل هذا الجوهر محل اليقين والحقيقة. كذلك من أدلة وجود العالم الخارجي هو الإدراك الحسي الحواس تستقبل فقط ما هو موجود ولا تخلق أي شيء الأشياء المادية هي معلولة ينبغي البحث عن علتها وهذه العلة مصدر أفكارنا الحسية هذه العلة لست أنا مصدرها لان الانسان حين يدرك شيئا خارجيا لا يخلقه بعقله دائما وإنما يستقبله بحواسه ولكن فقط هذه الحواس بالنسبة لديكارت تبقى دائما خادعة (7). فقط هناك في العالم المادي فكرة لا ندركها بالحواس إنما عن طريق العقل وهي فكرة الامتداد ماهية المادة عند ديكارت هي الامتداد وقد قال بها أرسطو.

ديكارت كذلك يفسر العالم المادي تفسيرا آليا كل شيء في الوجود تحكمه قوانين علم الطبيعة دون تدخل من أي قوة غير طبيعية، هنا ديكارت ليس معناه ينفي وجود الله وإنما خلق العلم وفق قوانين ثابتة منذ القدم وثباتها ناتج عن ثبات الله والله هو خالق وضامن هذه القوانين الطبيعية ديكارت يرد علم الطبيعة إلى قوانين ميكانيكية معنى ذلك إذا اكتشفنا قوانين الطبيعة وقوانين الحركة فقد أمكننا أن نفسر كل شيء في العالم المادي مثال الحيوان لا شعور له ولا وجدان ولا عقل هو مجرد آلة وفقط كائن ممتد لا يفكر ولا يتكلم وليس له نفس مفكرة كما يرى ديكارت أن العلة الأولى للحركة هي الله في العالم الله خلق المادة من عدم ومنحها الحركة والسكون الله أعطى الكون منذ البداية الحركة فالحركة إذن ثابتة ومن ثم نجد لدى ديكارت البذرة الأولى لقانون حفظ المادة عند نيوتن.

يخلص ديكارت فيما يخص العالم المادي إلى ما يلي:

_ كل شيء في الطبيعة خاضع لمبدأ الجبرية المطلقة

_ كل شيء في العالم إنما هو آلة محضة لا إرادة فيها عدا الإنسان كائن متميز يختلف عن كل الكائنات الأخرى

_ كل جسم متحرك يميل إلى الاستمرار في حركته في خط مستقيم

في الختام ينتج أن ديكارت كان أبا للفلسفة للحديثة وكانت فلسفته من أقوى العوامل التي هيأت المناخ الغربي لنشأة ونمو العلم الحديث.

المراجع المعتمدة:

_ مقال في الطريقة Discours de la Méthode سنة 1637

_ تأملات في الفلسفة الأولى Méditations سنة 1941

_ مبادئ الفلسفة principes de la philosophie سنة 1641.

_ رسالة في انفعالات النفس traité de passions de l'âme سنة 1650